

التعليم الفرنسي المزدوج

أولى ماستر أدب جزائري

المحاضرة الثالثة

أثر السياسة التعليمية الفرنسية على المجتمع الجزائري

خلال الخمسين سنة الأولى التي أعقبت الاحتلال لم تعط السلطات الفرنسية أهمية كبرى لمسألة تعليم الجزائريين ولم تبلور سياسة تعليم واضحة المعالم، فبعد مصادرة الأوقاف ونفي العديد من العلماء، وترهيب الباقين، وترك الفرنسيين التعليم يموت دون الإعلان عن ذلك رسمياً، اشتغلوا بالاستيلاء على الأراضي، وتوظيف أبنائهم فيها ومحاربة المقاومين، وأهملوا كل ما يتعلق بتعليم الجزائريين، حيث أنه ما بين 1830-1880م، لم تكن لفرنسا سياسة تعليمية أو نموذج أو تجربة هادفة، بل اعتمدت على مجموعة من التجارب التعليمية المتتالية كالتعليم المشترك، المدارس العربية الفرنسية ومدارس البلديات المختلطة وغيرها. وقد قدمت بعض التقارير عن وضع التعليم من قبل مسؤولي المكاتب العربية، وأبدوا آراءهم فيها، والتي تتلخص في الاستمرار في إهمال التعليم العربي الإسلامي وعدم رد الأوقاف إليه، كما كان هنالك اقتراح بتعليم مزدوج حيث تدرس فيه اللغة العربية لكن تبقى اللغة الفرنسية هي السيدة في علومها وهذا ابتداءً من 1850 مع اقتراح أيضا التخلي عن تعليم المدارس الريفية وكذلك إلغاء التعليم في الزوايا حتى لا تكون الزوايا مراكز لمعاداة الفرنسيين.

ويجب التذكير أنه حتى سنة 1882-1883م، لم يؤسس نظام مدرسي أو تعليمي رسمي يهتم بتعليم الجزائريين والعناية بثقافتهم، فالمهمة التعليمية كانت متروكة للإدارة المحلية الخاضعة لتأثير نفوذ المستعمرة الأوربية، وما يمكن ملاحظته أن التعليم تراجع وتدهور في قسنطينة منذ الاحتلال فبعد عشر سنوات 1847، كاد يختفي التعليم في هذه المدينة العريقة في خدمة العلم والعلماء، ولم يبق من 600 أو 700 تلميذ في الثانوي سوى 60 فقط، والمدارس الابتدائية التي كانت تعيش لم يبق منها سوى ثلاثين.

كذلك نشير إلى أن تدهور المستوى التعليمي في الجزائر في ذلك الوقت راجع لمقاومة المستوطنين فكرة تعليم الجزائريين الذين اعتبروهم أهالي، حيث جاءت تقارير من القادة العاميين ما يشبه العروض لحالة التعليم في الجزائر قبل الغزو وبعده، لكن أيضا إعطاء

إمكانية لتعميم الحلول على الطريق الفرنسية، كذلك التي كانت تطبق في ذلك الوقت أو الفكرة العامة التي بدت واضحة تماما في ملخص الدوق دومال، وهي التجديد الضروري للتعليم العربي التقليدي.

الاستدمار والثقافة العربية الإسلامية في الجزائر:

حاربت إدارة الاحتلال الفرنسي الثقافة العربية في الجزائر قصد إحلال الثقافة الفرنسية كبديل لها، ولتحقيق هذا الغرض سارعت إلى إصدار العديد من التعليمات والمراسيم والقوانين بهدف القضاء على اللغة العربية، وبتغيير الوضع الثقافي الأصيل بوضع ثقافي دخيل عن المجتمع الجزائري، وكان الهدف من كل هذا هو ضرورة مكافحة الشخصية الجزائرية، ثم إن نشر الثقافة الفرنسية لم يتم إلا نادرا وقليلًا، لأنهم كانوا يظنون أن هذه الثقافة الفرنسية تمثل خطرا على الاستعمار، وقد مارسوا في الحقيقة سياسة التضييل، وكانوا يجبرون الجزائريين على ترك ثقافتهم وفي نفس الوقت يمنعونهم من الوصول إلى الثقافة الأوروبية وبالأخص الثقافة الفرنسية.

وكان من نتائج هذه السياسة الخطيرة أن تعرضت المؤسسات الثقافية الجزائرية التي تشرف أساسا على التعليم إلى الغلق، والهدم مع انقطاع التمويل، وهذا ما دفع إلى تخلي السواد الأعظم من التلاميذ من الجزائريين على التعليم، أما العلماء فقط أجبروا على الهجرة إلى بعض الدول العربية الإسلامية.

نشأة مدارس التعليم الفرنسي المزدوج:

تأسست أول مدرسة فرنسية عربية في عهد الحكم العسكري الفرنسي في أول جوان من عام 1833 بالجزائر العاصمة، ومدرسة أخرى في عنابة، ثم جاء المرسوم الرئاسي المؤرخ في 14 جويلية من عام 1850 الذي أقر بدوره الشروع في تأسيس المدارس الفرنسية في كل من المدن التي تم احتلالها، خاصة المدن الكبرى منها الجزائر، وهران وقسنطينة وعنابة، وهذا المرسوم كان وراء انتشار هذا النوع من المدارس على حساب مدارس التعليم العربي، ونشأت المدارس الشرعية الفرنسية في سنة 1850، حيث صدر مرسوم إنشاء ثلاث مدارس واحدة في قسنطينة وأخرى في تلمسان والثالثة بالمدينة، وتوضع تحت إشراف السلطات العسكرية، وكان الهدف من هذه المدارس حسب المستشرق ألفريدل هو إعادة الثقة

للمغلوبين الجزائريين، وجلب الطلبة الذين كانوا من قبل يتوجهون للدراسة في الجامعات الأجنبية.

وتتجه هذه السياسة ضمن تيار إيديولوجي أسس لمشروع ثقافي استعماري متكامل، وهذا ما عرف بالجزائريين الجدد والذي كانت غايته صناعة هوية جديدة للجزائريين الجدد وإلغاء هوية الجزائريين الأصليين.

موقف الجزائريين من السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر:

إن صمود الثقافة العربية في الجزائر أرجعه العديد من الباحثين إلى إيمان المجتمع الجزائري باللغة العربية كمعلم من معالمه الشخصية التي لا بد من الدفاع عنها وصونها من العناصر الدخيلة، وإن الفضل في إعداد الدروس بالعربية يرجع إلى الأفراد والجمعيات والزوايا المتواجدة في الأرياف والكتاتيب الملحقة بالمساجد في القرى والمداشر والمدارس المنشأة في المدن. ويلاحظ أن الدولة الفرنسية قلما عملت لتدريس اللغة العربية، ورغم ذلك فقد تمكنت السياسة الاستعمارية من تحطيم التعليم التقليدي وتراجع نشاطه بحيث: " أن الحرب أدت إلى ضعف مستوى التعليم كما أن العلماء قد حملوا السلاح أو هاجروا أو التزموا بيوتهم، وأدى تدمير المساجد ودور العلم والمكتبات إلى شغورها من النشاط الثقافي واختفت المدارس والمساجد من جراء انعدام الصيانة ويسبب تحويلها إلى مصالح عمومية، ولسوء الحظ فقد مسها الأذى العام الذي لحق بكل شيء، وهذا إما كانت نتيجة ارتفاع نسبة الأمية والجهل بين السكان بهذه الحصيلة الهزيلة للسياسة التعليمية الفرنسية، والتي تعكس الانتشار الواسع للجهل والأمية وقلة أو ندرة الإطارات والكفاءات البشرية ويقول فرحات عباس في هذا الصدد: " جبهة التحرير الوطني كونت في ظرف ست سنوات فنيين جزائريين يفوق عدد الذين كونتهم فرنسا في ظرف أكثر من قرن.

أهداف السياسة التعليمية الفرنسية:

حاولت السياسة الفرنسية في ميدان التعليم منذ بداية الاحتلال تحقيق مجموعة من الأهداف حشدت لها الإدارة الاستعمارية جيشا من المعلمين ورجال الفكر والثقافة وعلماء الأنثروبولوجيا ويتجلى ذلك في:

استكمال مسار التغلغل الاستعماري عن طريق غزو العقول بالمدرسة، التي كان قادة الاحتلال يعرفون جيدا الدور الذي يمكن أن تلعبه في توجيه المجتمعات أخلاقيا وتربويا

وثقافيا وسياسيا، وكانت تهدف فرنسا من خلال إنشائها بعض المدارس وإظهار اهتمامها بالإسلام والمسلمين، وهي الوحيدة القادرة على إعطائها الإسلام الحقيقي، الذي شوهته الطرق الدينية، ولكنها جعلت من المدرسة وسيلة مثالية لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته العربية الإسلامية، وهي أداة أحسن وأنفع من استعمال القوة والضغط، كما عملت على منافسة الزوايا الموجودة في البلاد المجاورة كالمغرب وتونس، وذلك بالإنقاص من قيمتها ووزنها العلمي وبتخفيض عدد طلابها من الجزائريين، حيث عمدت فرنسا إلى إفراغ مناهج التعليم من محتواها في المدارس، ما من شأنه إعداد جيل من الجزائريين يفقه في أمور دينيه وينمي ثقافته. وكانت السياسة التعليمية الفرنسية تهدف إلى إنشاء جيل من الجزائريين يخدمون الاستعمار بأبدانهم وعقولهم، وبذلك يسهل استيعابهم في المجتمع الأوربي.

ومن أهداف السياسة الفرنسية بسط الهدوء والسلام في البلاد وذلك بتقريب المجموعتين "الأهلية" والفرنسية إلى بعضها البعض عن طريق المدرسة التي أصبحت وسيلة في يد الإدارة الاستعمارية لوضع حد للمقاومة الجزائرية، ومسح وتشويه تاريخ وجغرافية الجزائر بتجاهلها أحيانا، وحرمان الجزائريين من دراستها دراسة صحيحة وافية في المؤسسات التعليمية الحكومية والتدخل لإلغائها في المؤسسات التعليمية الحرة، وفي ذلك إنكار للذات الجزائرية، ويقول أحد المعمرين في هذا الصدد " يجب على المدرسة الفرنسية أن توجه مهامها وتضرب بقوة ما هو وطني وديني، وبخاصة كل ما من شأنه أن يساهم في تكتل الأهالي حول هويتهم الأصلية، وتوقيف المد الحضاري العربي الإسلامي في الجزائر وتكسير البنية الثقافية للمجتمع الجزائري، وفرض الحصار عليه وغلق جميع المنافذ المشرقية التي يمكن أن يتشكل منها شعاع المعرفة، والوعي العلمي".

وما يمكن استخلاصه من أهداف السياسة التعليمية الفرنسية:

- تجهيل السكان من الجزائريين لصالح رفع المستوى العلمي للأوروبيين.
- تنصير كل ما يمكن تنصيره عن طريق نشر المسيحية، والحط من شأن الإسلام والمسلمين.

- إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية.

وقد وجدت هذه الأسس طريقها للتطبيق في ظل الإدارة الاستعمارية، ونشر هذه الثقافة الاستعمارية يتطلب القضاء على كل أفكار معادية لها، ولهذا، كانت السياسة

التعليمية تهدف إلى القضاء على الشخصية الوطنية للشعب الجزائري بأبعادها المتعددة، أما التعليم التبشيري في الجزائر فقد كان يرمي إلى تحقيق الأهداف التالية:

- القضاء على الدين الإسلامي، واللغة العربية باعتبارها من معوقات العمل التبشيري.
- نشر لغة وثقافة المستعمر بين الجماهير الجزائرية باعتبارها أدوات تسهل للاستعمار البقاء في الجزائر.

- تكريس الاحتلال والإدماج والقضاء على الثورات الوطنية التي توالى ضد الاستعمار الفرنسي.

- تهيئة الأرضية الصالحة للتصير وإعادة المسيحية إلى الجزائر (أي إحياء الكنيسة الإفريقية التي اندثرت منذ الفتح العربي الإسلامي في النصف الأول من القرن الأول.
- التنصير الذاتي، وتكوين نخبة في الجزائر موالية لفرنسا.

وفي الأخير يمكن القول أن المجهودات التي كانت تصب في دعم حركة التنصير في الجزائر منذ بداية الاحتلال اصطدمت بواقع تمثل في نشاط المؤسسات الإسلامية، التي حافظت على التماسك الاجتماعي والديني أمام نشاط الإرساليات التنصيرية التي كانت تمثل وسيلة من وسائل الاستعمار، حيث عملت كل ما في وسعها لاستهداف الأسس الدينية للمجتمع الجزائري.

وبذلك نخلص إلى أن أهداف الاستعمار في الجزائر متعددة وخاصة قضية نشر الثقافة الاستعمارية والهدف ليس تثقيف الجزائريين، فقد كتب أحدهم من ذوي النظريات الخاصة في التعليم الفرنسي كلمة صريحة في هذا الصدد حيث قال: "إن أحسن وسيلة لتقييد الشعوب البدائية في مستعمراتنا، وجعلهم أكثر ولاء وإخلاصهم لخدمة مشاريعنا هو أن نقوم بتنشئة أبناء الأهالي منذ الطفولة، وأن نتيح لهم الفرصة لمعاشرتنا باستمرار، وبذلك يتأثرون بعاداتنا الفكرية وتقاليدينا، فالمقصود باختصار هو أن نفتح لهم بعض المدارس لكي تتكيف عقولهم حسبما نريد".